٣ ـ طاغور وغاندى

بين الشرق والغرب

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى ، أراد طاغور أن يقوم بعمل إيجابى يحقق به آماله فى وحدة العالم ، فذهب إلى أوربا ليجول بين بلدانها ويدعو شعوبها إلى التفاهم والتآلف والتآزر ، ويحضها على إقامة وحدة دولية تضم مختلف شعوب العالم ، وتريح البشر مما يعانيه من قلق واضطراب وخوف ، ولكن هاله أن يسمع عن الهند ، وهو فى أوربا التى يدعوها إلى التعاون ، أنها تنادى باللاتعاون مع الغرب ، وفزع لما رجع إلى بلاده ووجد غاندى يعلم الهنود محاربة الاستعمار الإنجليزى بالعصيان المدنى ، وعدم طاعة القوانين الضارة بالبلاد ، وتحاشى التوظف فى المناصب الحكومية سواء أكانت قضائية أو عسكرية ، ويشجع الهنود على استعمال الغزل اليدوى ومقاطعة المنسوجات الأجنبية وحرقها حتى لا تحتاج الهند لمساعدات خارجية ، ويطالب التلاميذ بهجرة المدارس الحكومية ، ويناشد رجال العلم بتدريس تراث الهند الروحى القديم فى المدارس والجامعات وإهمال تدريس الثقافات الغربية . فلم يرض طاغور عن أسلوب غاندى فى المقاومة السلبية وأقلقه ذلك التغيير الذى أحدثه فى أفكار الهنود ، وأخذ ينتقد طرق نضاله مع الإنجليز بالرغم من تقديره لسمو نزعاته الروحية ، واحترامه لنبل مقاصده الوطنية ، وإدراكه لمغزى جهاده السلبى .

ولقد بدأ طاغور نقده لغاندى بإعلان استيائه من اشتغاله بالسياسة ، وأسفه على استغلاله الدين فى أمور الدنيا ، واستعانته بالقوى الروحية فى حل القضايا السياسية ، والمشاكل الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ؛ وكان يود أن يظل غاندى — ذلك النموذج الكامل للقوة المعنوية ، والبطل المقدس التى تضرب سيرته مثلا أعلى للحياة الروحية الفاضلة — بعيداً عن الألاعيب السياسية ، محافظاً على رفعة حياته الروحية من قذارة الأساليب السياسية الخبيثة ، غير معرض نفسه لتقلب أهواء السياسيين الدهاة ، حتى لا يؤذى مقوماته النفسية ، أو يضعف قواه الروحية . وكذلك عاب طاغور على غاندى تفريطه فى ثروة الهنود الروحية وبذلها رخيصة فى سوق الحياة العملية ، واستخدامها استخداماً خطراً على نزعات الهنود فى مقاومة الإنجليز ، وحزن لجناية غاندى على روحية الهنود ، وتألم ، لأنه حول القوة المعنوية التى تفتخر الهند بحوزتها من قديم الزمن إلى قوة عمياء تسخرها العواطف الوطنية فى تحقيق المآرب القومية دون الغايات الإنسانية التى يفرضها الدين الهندوكى على الهنود ، وتوصلهم إلى أرفع مراتب الكمال الروحى . .

ولم يقف نقد طاغور لغاندى عند حد خوضه السياسة وإقحامه الدين فى مشاكل الأرض ، بل تعداه إلى ذم أساليبه السياسية وطعنه فكره اللاتعاون مع الغرب ، لأنه يؤمن بالاتحاد الحقيقى بين الشرق والغرب ، ولم يستسغ مطالبة غاندى الهنود بمقاطعة الانجليز اقتصادياً ، وتضايق من فرضه على كل هندى أن يغزل يومياً وينسج ويحرق ملابسه الأجنبية ، ولا يلبس إلا ما غزل بالغزل اليدوى . ويرى أن خطر هذه الآلات الصغيرة على الهند لا يقل عن خطر الآلات الكبيرة على الغرب ، فهى تجمد حيوية الهند وتعرقل تقدمها ، فلا يجب أن تتخذ منها الهند وسيلة لمعالجة الفقر والجوع . كما لم يرقه كره قومه الرذيل للثقافة الغربية ، واعتبر مقاطعة المدارس والجامعات التى تدرس هذه الثقافات مظهراً من مظاهر ضيق الأفق وفقر المدارك ، ولوناً من ألوان التعصب الإقليمى المنحط .

إن إهمال الهنود بحث الثقافات الهندية خطأ يعيبهم يجب أن يتداركوه ، ولا يستحق منهم الإغضاء عن دراسة العلوم الغربية ولا يجب أن يتحرجوا من أن تستفيد الهند من خيرات الغرب الثقافية . ولئن كان غاندى لم يرم بسياسته إلى محو آثار المدنية الغربية من الهند ، إلا أن ثورة الأهواء القومية تجعل لمبادئه فى اللاتعاون هذه المقاصد الفاسدة . ويخاف طاغور على طهارة الهند من غائلة بربرية أتباع غاندى الروحية .

لا ينكر طاغور أن تحقيق استقلال الهند أمر خطير ويحتاج إلى نوع من الحماسة والعاطفة ، وإلى ضرب من الوطنية والتعصب إلا أنه يرى أن الاستقلال أكثر احتياجاً إلى روية الاختصاصيين

وتدبر الاقتصاديين وبحث العلماء ، فإن الحماسة وحدها لا تكفي لحل المشاكل الهندية ، وإنما يتطلب حلها كذلك الاستعانة بالعلم والكياسة والسياسة والاقتصاد ، فإن استئثار فرد — ولو كان زعيم الحب والحق — من دون الهنود جميعاً في رسم خطى السياسة العليا الهندية من اقتصادية وسياسية وثقافية لثقل تنوء بحمله قوى رجل واحد مهما تعددت مواهبه ، ويجب أن يسمح لجميع الكفايات في الهند بأن تساهم بجهودها في خدمة الهند ، فيعطى للاقتصادي فرصة لتدبير المال اللازم لرفاهية الشعب ، وللصانع فرصة لأن يشتغل بالصناعات التي يمهر فيها ، ويطالب من علماء التربية وضع الأسس الصالحة لتربية أبناء الأمة ، ومن رجال العلم تعيين البرامج الثقافية اللائمة للطالب الهندي ، ويشجع السياسي على استخدام دهائه وفكره في الحصول على استقلال الهند . وبغير ذلك لا يمكن أن تنال الهند الحرية وتنجى من العبودية . أما أن ينفرد شخص بمعالجة قضية الوطن ، ثم ينادي بقطع كل اتصال بين الهند والغرب ، فيلبي الشعب الضعيف دعوته بغير تبصر ، ويطيع أوامره في مقاطعة الغرب والقضاء على سبل التعاون معه طاعة عمياء ليدل على نوع من الاستبداد الروحي بشعب هزيل الروح قابل لعوارض غضب هستيري قد يعصف بكيان الأمة الهندية .

ربما تكون مقاصد غاندي من وراء المقاومة السلبية شريفة ، ولو طبق جميع الهنود مبادئه في اللاتعاون بنفس الروح التي يفهمها غاندي لما تعرضت الهند لأخطار العواطف القومية والثورات والفتن ولكن الخوف من المكافين بتنفيذ آراء غاندي ، فقد يتوهمون أو يوهمون أن اللاتعاون هو الغاية النهائية من حركة غاندي السياسية ، وليس وسيلة وقتية ، ويؤمنون به كدين قويم في اتباع حرفيته خلاص الهند من الاستعباد .

بينما خلاص الهند من الاستعباد لن يأتي إلا عن طريق التعاون مع بقية الشعوب والاندماج فيها وتكوين أمة عالمية تشمل جميع الشعوب على اختلاف أجناسها وألوانها وثقافاتها وعاداتها ، لأن مشاكل العالم المتعددة لن يعرف لها حل نهائي ما دامت الأمم متفرقة بعضها عن بعض ، تعيش كل منها في نفسها ، تود لو تقضي على كل رابطة تربطها بباقي الأمم ، لا تثق في جدوى التعاون ، وتقبل أن تظل حبيسة حدود الوطن الضيقة خلف حواجز مصطنعة تفصلها عن سائر الشعوب ، وترضى أن تحيا على الدوام في حرب مع كل أمة تريد أن توجد بينها وبينها علاقة وطيدة ، أو تتدخل في شئونها . ولذلك سيظل العالم على ماهو عليه من قلق واضطراب وخوف طالما لا ترغب الدول في الاتحاد التام ، فيجب على الهند أن تلعب دوراً هاماً في سبيل توحيد العالم وتسبق جميع الشعوب في الدعوة إلى التفاهم والتآخي ، وتضرب مثلا حياً للدول العالم يسعد بسعيها الصادق في إنجاز وحدة الدنيا ، لأن الدين الهندوكي يقوم على حقيقة وحدة الوجود ، ويطالب الهنود بتحقيق هذه الوحدة من مشاعرهم وأفعالهم وفي داخل نفوسهم وخارجها ، ويحثهم على فناء ذاتهم الفردية في الذات اللامتناهية ، حتى لا يشعر أحد إلا بالروح الكلية التي تضم كل شيء في الوجود ، ولن يصل هندي إلى هذه المرتبة الروحية العالية إلا عن طريق الحب والوئام والتعاون ، فإذا سعت الهند إلى وحدة العالم ، فإنها تطيع أوامر الدين ، وتلبي في نفس الوقت نداء الإنسانية وتنقذ أهلها من رق التعصب الأناني ، وتطلقه من أسر النعرة القومية الهوجاء ، وتبرئه من مبادئ اللاتعاون التي تثير الحقد والكراهية في النفوس ، وتسلم العالم من أشرار الانفصال ، وتوصله إلى بر الاتحاد ، لأن الانفصال باطل يدعو إلى التعصب ، ويثير الشقاق ، ويحض على تهجم الروح الفردية على الروح الكلية فلا تتمتع أمة بسعادة أو تنعم بسلام .

ولا يحقق هندي ذاته ، أو يفوز بغايته الدينية ، وتصبح أمم العالم في تنابذ وتشاحن ، فيضطرب النظام الطبيعي في المجتمع الدولي ، ويخلق الظلم والاستبداد ، وتشرع القسوة والاستعباد فتعاون قوى العالم ونسيان ما بينها من أحقاد وأضغان ضروري لتفادي كل ما يعرقل وحدة الدول أو يعوق تعاونها ، واستمرار الهند في التفكير في الانتقام ، والسعي في الانفصال عن الغرب ، لن يخلصها من الجوع والفقر ، واتخاذها اللاتعاون سبيلا لطرد المستعمر من البلاد لن ينيلها الحرية الحقيقية ، لأن مشاكل الهند مرتبطة بمشاكل الغرب ، وحلها يتطلب مقدماً تعاون العالم ، فلا مفر من التعاون ، لأن واقع الحياة العالمية يمليه على الأمم لينقذها من وهدة الظلام التي تعيش فيها . فوق أن الدين الهندوكي يجبر

كل هندى على تحقيق الذات اللامتناهية التى تتلاشى فيها ذات الأفراد ، ولا يوجد بها إلا الحياة الكلية ، والتى تزول فيها القيم الظالمة القاسية ، ويبقى بها الحب والوئام والتعاون .

إن انتقادات طاغور لغاندى تدل على أن طاغور ثابت الفكر لا تتلون نزعاته الروحية بتغير الظروف ، فهو رجل يؤمن بقوة الروح ، ويعتقد فى الحياة الفاضلة ، ويثق فى الوحدة سواء أكان مجالها حياة الفرد أو حياة الأسرة أو حياة الأمة أو حياة العالم . ويود أن يحافظ الفرد والأسرة والأمة والعالم بأجمعه على هذه الأصول ، فلا تتحول القوة الروحية إلى قوة مادية حسب الأهواء القومية ، أو يستغنى عن الفضائل المعنوية فى سبيل الفوائد النفعية إذا اقتضى مصلحة الأمة ذلك ، أو تفضل الوطنية على الإنسانية والانفصال على الاتحاد لعلة من العلل المادية الوقتية . وعلى هذا الأساس وجه طاغور انتقاداته لغاندى ، ذلك الزعيم الروحى الذى تم حياته الخاصة عن عيشة زهد وتقشف وإنكار للذات وتضحية بينما تم سيرته السياسية عن خلاف ذلك ، فهو يقحم الدين الروحى فى السياسة المادية ، ويغلب تعصبه القومى على ميوله الإنسانية ، ويستبدل التعاون باللاتعاون فى محاربة الإنجليز ، ويدعو لانفصال الهند عن الغرب بدلا من الاتحاد معه ، فعارضت أساليبه السياسية حياته الخاصة ، وخرجت على تعاليم الدين الهندوكى التى تقوم على حقيقة وحدة الوجود . وكان على غاندى أن يرد هذه التهم ويفسر أساليبه ويدفع عن نفسه هذه الشكوك التى أثارها طاغور حول نزعاته الروحية والإنسانية ، ويبين أن سيرته الخاصة لا تناقض سيرته السياسية .

فقام غاندى يفند أقوال طاغور ويبرر آراءه وطرقه ويوضح أنها تستند على أسس من الدين وتتمشى والمبادئ الإنسانية ، فزعم أن حبه للهند أو تعصبه لقومه لايشهد بأنه خرج على الدين أو نبذ القيم الإنسانية وتعلق بوطنية حمقاء ، لأن الوطنية فى ذاتها لا تتعارض والإنسانية ما دامت لا تضر بالشعوب المادية .

إن وطنية غاندى ظاهرة لا تشوبها نقائص الأنانية الاستغلالية ، فهى وإن كانت تحثه على خدمة الهند وإصلاح شئون الهنود الخاصة والعامة والانتفاع بمقومات الحضارات القديمة إلا أنها لا تدفعه إلى أن يكسب شيئاً للهند ، ويسىء فى نفس الوقت إلى انجلترا ، أو تغريه على تنمية عواطف حب السيطرة فى نفوس الهنود ، حتى يقويهم على الاعتداء على الشعوب المجاورة . فوطنية غاندى لا تقوم على الكراهية ، إنما تقوم على الحب ، ولا تخالف الدين أو تهمل القيم المعنوية ، وإنما تستوحيها جميعاً وتعززها .

أما عن اشتغال غاندى بالسياسة ، فيقول إن السياسة تلتف حول كل هندى إلتفاف الأفعى ، ولا سبيل للتخلص منها . ولكى يقضى غاندى على سموم هذه الأفعى ، اضطر إلى أن يقحم الدين فى السياسة . ويقصد بذلك أن حالة الهند وما هى عليه من تفكك وتصدع وذل واستعمار ، وظروف الهنود وما هم عليه من بؤس وشقاء وانحطاط ، وتطور الحوادث السياسية والاجتماعية فى الهند ، يُلزم أى هندى يحب ترقية وطنه ، بأن يساهم فى تحرير بلاده وإصلاح حياة أهله . وبتأثير هذه العواطف الشريفة ، خاض غاندى معترك الحياة السياسية الخبيثة السامة مرغماً . ونظراً لأنه دينى بالفطرة ، سياسى بالضرورة ، شرع فى تطهير السياسة من طرقها الملتوية الحقيرة بإدخال الدين فيها ، حتى يسمو بالسياسة إلى سماء الدين . وعلم الهنود الإضراب الدينى السلمى ، الذى يعلن بقوة ووضوح ، الاحتجاج على الظلم بدون إحداث شغب أو تلف أو إراقة دماء . كما علمهم الارتكان إلى اللاتعاون ، كلما نزل بهم جور . فحارب الهنود الإنجليز بأسلحة سلبية لا تعتمد على العنف أو القوة المادية أو العصيان المسلح ، فحافظ غاندى فى نضاله السياسى على روح تعاليم الدين الهندوكى السلمية التى تكره العنف وتنادى بضرورة التذرع بسلاح الحب .

(البقية فى العدد القادم) عبد العزيز محمد الزكى

مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأيوبية بكفر الزيات

اطلب كتاب

دفاع عن البلاغة